جرائم الاستعمار الفرنسي الثقافية المتعلقة بمحاربة اللغة العربية في الجزائر لتكريس سياسة الإدماج

د. هيفاء رشيدة تكاري و أ. د. خالد رمول

مقدمة

الجرائم الثقافية هي أن يعمل المحتل على مسح ذاكرة الشعوب، بفرض ثقافته محل ثقافة الشعب الذي احتله، و بمرور الوقت يتم تحويل السكان، فالأجيال الجديدة لا تجد أمامها سوى التمسك بالثقافة المفروضة عليها لأنها و بكل بساطة لا تعرف غيرها، فالمحتل طمس هويتها الوطنية.

و هذا ما حاولت فرنسا فعله بالشعب الجزائري من خلال سياسة الإدماج، هذا و إن الجريمة الثقافية تستهدف الحضارة و الإرث الثقافي و القوى المعنوية التي تحرك الشعوب بهدف الوصول إلى نفسية الإنسان و حرمانه من مصادر الوعي و الثقافة المتمثلة في اللغة، التاريخ و الدين، بصفتها من مكونات الشعوب . و قد أحست الأمم المتحدة بخطورة هذه الجريمة، فجاء في مشروع الجريمة المخلة بسلم الإنسانية و أمنها أن التدمير الثقافي للإنسانية و القوة الموجهة ضد الوجود الإنسان و الحط من الكرامة الإنسانية هي جوانب مختلفة لجريمة واحدة هي الجريمة الدولية.

أيضا كرست منظمة اليونسكو حق الشعوب في ممارسة عاداتها و تقاليدها و شعائرها الدينية و معرفة تاريخها، إذ نصت على: أن لكل شعب الحق في ممارسة حقه في تقرير مصيره، و أن يقرر و يقيم النظام الثقافي الذي سيعيش فيه أو في ظله، و هذا يفترض حق الشعب في استعمال تراثه الثقافي و صيانته و إغنائه و تمكينه من حق التعليم و الثقافة". ثم جاءت اتفاقيات جنيف الأربع وبروتوكوليها سنة ١٩٧٧ و سارت في هذا المضمار. و التي تضمنت ما يلي:

١- يحضر ارتكاب أي عمل من الأعمال العدوانية الموجهة ضد الآثار التاريخية أو الأعمال الفنية أو أما كن العبادة التي تشكل التراث الثقافي أو الروحي للشعوب.

٢- استخدام مثل هذه الآثار في المجهود الحربي.

٣- استخدام هذه الأعيان محلا للهجمات.

إن معظم الأماكن المقدسة تراث مشترك للإنسانية لذا من واجب المنظمات الدولية و الدول التعاون الخلاق في هذا المجال، و اعتبارها قضية سلم وأمن حقيقين.(١)

لقد كان الفرنسيون يرون أن اللغة العربية هي إحدى أبرز مقومات الشخصية الجزائرية، وأن بقاء هذه اللغة، يعني بقاء الشخصية الوطنية للجزائريين، التي تناقض حضارتهم وتعرقل أهدافهم ومشاريعهم، لهذا عملوا للقضاء عليها بمختلف الطرق ولتفكيك المجتمع الجزائري وفصله عن ماضيه ليسهل ضمه وابتلاعه، لذلك عمل الاستعمار الفرنسي على بذل أقصى جهوده منذ دخوله إلى الجزائر في يوليو (تموز) عام ١٨٣٠م، حتى خروجه من الجزائر مطرودًا مهزوما في عام ١٩٦٢م، لطمس معالم اللغة العربية لا في التعليم فقط ولكن في الإدارة وحتى في الحديث العادي بين جماهير الشعب الجزائري. لقد ارتكبت فرنسا منذ دخولها الجزائر جرائم ثقافية لا تعد ولا تحصى من أجل القضاء على اللغة العربية والتي سنقسمها إلى:

١- محاربة الإسلام.

٢- محاربة التعليم.

٣- محاربة المدارس.

٤- نهب الكتب والمخطوطات الجزائرية.

٥- وضع التعليم العربي الإسلامي.

٦- اللغة العربية.

٧- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحفاظ على اللغة العربية.

٨- الحركة الإصلاحية ومدرسة التجديد الإسلامي.

١- محاربة الإسلام

إن الفرنسيين بمجرد احتكاكهم بالشعب الجزائري كانوا يعملون على التضييق على الجزائريين كي لا يمارسوا شعائرهم الدينية، بواسطة مصادرة مساجدهم ومنع الاحتفال بكل المناسبات الدينية كالأعياد مثلا. كما وضعت فرنسا يدها على الأوقاف المخصصة لتمويل التعليم القرآني العربي، وذلك للقضاء على الثقافة الإسلامية وتعويضها بالثقافة الغربية، لأن الفكر الأوروبي يقوم علي" تفوق الرجل الأبيض وحتمية سيادته"، فما ألقاب "أهلي" ، "رعية"، "بيكو" وحتى "مسلم" إلا دليل على الاحتقار، فهذه ألقاب خاصة بالجزائريين فقط، وان كان الكثير يرى أنه لا توجد صلة بين القادة الأوروبيين وديانتهم، فإن هذه مغالطة كبيرة لأن الدين المسيحي يمثل منبعا لثقافتهم الجماعية، ويؤثر في سلوكهم حتى لو كان ذلك لا شعوريا –المقصود هنا المسحيين المتعصبين-(٢) . إذ قال الملك " لويس فيليب" الذي كان يشجع النشاط التبشيري في الجزائر ما يلي: " لا يكون العرب فرنسيين إلا عندما يصبحون مسيحيين في الجزائر، و ذلك يتوقف علينا نحن، فلنعد الحياة إلى إفريقيا". وكان رئيس الوزراء الفرنسي " فيزو" على رأي واحد مع الملك، وقد أبلغ الأوامر للإدارة الفرنسية في الجزائر بضرورة تمسيح الجزائريين. (٣) إذن فقد كان للجانب الديني أثر كبير في التشجيع على احتلال الجزائر، إذ أن فرنسا ادعت أنها تنقذ المسيحية من يد القراصنة الجزائريين، مثلا: وزير الشؤون الدينية " فريسنوس" وهو أسقف كبير في فرنسا، له دور فعال في اتخاذ قرار احتلال الجزائر من طرف الملك " شارل العاشر"، إضافة إلى تشجيع الوزراء له منهم وزير الحربية " كليمون تونيز" الذي عبر في تقريره الذي بعثه للملك يوم ١٤ أكتوبر١٨٢٧ عن آماله في تمسيح الجزائر، كما أكد الملك شارل هذا لما طلب من أسقفة المملكة تنظيم صلوات لانتصار جيوشه(٤). لذلك نجد أن الفرنسيين بمجرد استقرارهم في الجزائر وضعوا أيديهم على المساجد، وفي شهادة قدمها السيد "حمدان بن عثمان خوجة" – هو من عائلة جزائرية عريقة، عمل بعد احتلال الجزائر كعضو في بلدية الجزائر، وفيها حاول الحفاظ على ما تبقى للجزائريين من ممتلكات، حيث رفض تسليم عدة مساجد للفرنسيين الذين أرادوا تدميرها بحجة إقامة مؤسسات وطرق عمومية بدلها- قال: "كان الجنرال كلوزيل قد طلب من البلدية أن تسلمه مسجد العاصمة الكائن بناحية ميناء المسمكة ليحوله إلى مسرح، وأكد بأن حكومته أذنت له بأن يقدم مثل هذا الطلب، فقلنا له إننا لا نستطيع الموافقة على هذا الإجراء ، واكتفينا بأن قلنا له إذ كان المرغوب هو إقامة مسرح فانه يمكن استعمال مسكن الداي القديم الواسع كما يمكن استعمال الأراضي المحيطة به لبناء مسرح جديد إذا اقتضى الأمر ذلك" ، وهكذا ظل الطلب غير مجاب ولم يبن المسرح . ووقع كذلك تهديم ثلاثة مساجد كانت خاصة بسكان المحلات الثلاث، وهي : محلات سوق الصباغين بالعاصمة.....، إن نفس الجنرال " كلوزيل" قد أوجب على المفتي أن يسلمه المساجد الواقعة أمام الأبواب التي يدخل منها البدو من أسوار مدينة الجزائر، وهذه المرة طلب المساجد ليجعل منها مستشفيات لجيوشه، وتعهد للمفتي أنه لن يستعملها أكثر من شهرين، واضطر المفتي لتنفيذ الأمر(٥) . ثم جاء عهد الدوق "دي روفيقو" من آخر شهر ديسمبر ١٨٣١ إلى ربيع ١٨٣٣ ويعتبر عهده من أسود مراحل الحكم إذ ساده الظلم والبطش والاستبداد وقد خطط هذا السفاح لتحويل مسجد "كتشاوة" المجيد إلى كنيسة. وقد كتب المؤرخ الفرنسي "شارل أندري جوليان" عن هذه الحادثة نقلا عن شاهد عيان ومترجم بالجيش الفرنسي يسمى "جوني فرعون" ، وعلى حسب هذا الأخير فان "دو روفيقو" قد طبع تحويل مسجد "كتشاوة" إلى كنيسة بشيء من الشرعية، و أمر بالاستيلاء على المسجد يوم ١٧ ديسمبر١٨٣١ و تم ذلك ابتداء من اليوم التالي، وعلق الصليب وعلم فرنسا على صومعته على أنغام تحية القوات العسكرية البرية والبحرية (٦) وهناك عدة مساجد أخرى غير مسجد "كتشاوة" حولت إلى كنائس ،منها أحد مساجد وهران حوله الجنرال "دي لامورسيير" إلى كنيسة (٧) ومن أبرز مظاهر العصبية الدينية للفرنسيين في القرن العشرين محاولة بلدية الجزائر العاصمة تهديم مسجدي العاصمة الكبير والجديد سنة ١٩٠٩ لإعادة بناء الواجهة البحرية للقصبة إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل ،كذلك تظهر محاولة القضاء على الإسلام من خلال تصريح حاكم تبسة إذ قال"إننا جئنا إلى الجزائر لدفن القرآن"(٨)

ورغم كل هذه الجرائم التي قامت بها فرنسا في حق الدين الإسلامي فان هذا

لم يكفها، فقامت بإرسال مبشريها إلى الجزائر الذين راحوا يتسللون بين أفراد المجتمع الجزائري نافثين سمهم الزعاف فيه. قد بدا الارتباط بين قوات الاحتلال والمبشرين جليا بعد سنة ١٨٧٩، وذلك عندما:

- سلحت جمعية إخوان الصحراء.
- دعم رجال الجزويت الذين يهربون الأطفال من منطقة القبائل.
- منح تسهيلات النقل بين الجزائر وفرنسا للمبشرين.(٩)
- و قد عملوا على نشر الديانة المسيحية وطمس الإسلام بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة مادية أو معنوية (١٠)
- استغلوا حالة الفقر المدقع للشعب الجزائري خاصة مجاعة ١٨٦٧.
- قوة الوسائل المادية التي في حوزة المبشرين.
- التمتع بالصبر والحيلة والخبث.

صحيح أن فرنسا لم تصل إلى مآربها، وبقي الشعب الجزائري يدا واحدة آنذاك ضدها، إلا أن التعليم التبشيري ترك رواسبه لما بعد الاستقلال، وما نحن نعيشه الآن من حساسية بين بعض البرابرة والعرب إلا نتيجة لمؤامرة فرنسا الدنيئة، والمتمثلة في التبشير، إذ نجد بعض البرابرة يفضلون اللغة الفرنسية عن العربية، ولتجاوزها يجب تكثيف الدروس الدينية فالإسلام وحده قادر على توحيد الأجناس. (١١)

٢- محاربة التعليم

لقد أعطى مولان نظرة جديدة للاستعمار، إذ قال " الاستعمار في مفهوم العصور القديمة كان يعني إخضاع و إبادة الشعوب، أما الآن فكلمة الاستعمار تعني نشر الحضارة ومزايا ومنافع التطور الاقتصادي والتجاري بين هذه الشعوب ". وقد طبق الفرنسيون في الجزائر نظرية علم لتحتل (١٢) . وبهذا يكونون وضعوا الركيزة الثالثة للاستعمار، فبعد الجيش والفلاحة تأتي المدرسة، وقد اعتبر المعلم في القرنين التاسع عشر "١٩" والعشرين "٢٠" ميلادي وسيلة أساسية من وسائل الاستعمار، ذلك لأنه يحتك بالمجتمع، ولأنه قدوة للذين يتتلمذون على يديه، وكذلك يعتبر نموذجا عن الحضارة الفرنسية من خلال أسلوب حياته، فيحاول تعظيمها قدر الإمكان . وبهذا فان حياة وطبيعة المجتمع الجزائري ستتغير جذريا، وذلك بإدخال عادات وتقاليد هذا المعلم الغربية والغريبة عنه ، وكل هذا لأجل إنشاء مبشرين علمانيين فأنشئت مدرسة لأجل تحضيرهم وتخريجهم استعماريين جاؤوا خصيصا من المتروبول، وقد كان مكان هذه المدرسة في بوزريعة (١٣) .ونظرا للأهمية التي يلعبها المعلم فقد قال النائب روزي بالرغم من أنني لست مربيا اسمحوا لي أن أخبركم أن للمهمة التي يقوم بها المدرس الذي بعثتموه هناك – بقصد الجزائر- دوران مختلفان، الأول يحمل طابع تعليمي محض، أما الثاني فهو الذي أسميه بالمهمة الدعائية ذات التأثير الفرنسي". وإن فرنسيين كانوا يؤمنون أن الوسيلة الوحيدة لضمان أمنهم هي تخليص الجزائريين من العصبية الدينية، ذلك أن الدين الإسلامي يفرض أن يكون الخليفة أو الحاكم مسلم، وكذلك يحث على الجهاد والعيش بكرامة، وان المدرسة تقف في وجه الدين واللغة العربية بطريقة غير مباشرة، أي بالتعليم والتهذيب والتربية، فتؤدي إلى تحويل العقول والمعتقدات تدريجيا، وبهذا فإنها تضعف رجال الدين و مدرسي اللغة العربية الذين وقفوا في وجه الاحتلال، وبهذا فان الجزائريين الذين كانوا يكنون العداوة و الكره للفرنسيين يصبحون هم الذين يتمنون صداقتهم ويأملون في الدخول معهم في اتصالات وعلاقات واسعة، وقد قال جونار سنة ١٨٩٢ في تقرير له: "لا يمكن أن نبعد أو أن نقضي على هذا الجنس الأهلي النشيط والعنيد، بل يجب العيش معه في ظل إدارة تحترم قوانينه يجب أن نعمل على التآلف". وقد عمل هذا الأخير عندما أصبح حاكما عاما للجزائر على جذب أكبر عدد ممكن من مثقفي فرنسا، ليكونوا وسيلة لنشر الحضارة الفرنسية وسط الجزائريين، فقد قال سنة ١٩٠٨ (١٤) في شأن تكوين النخبة ما يلي:

"... يجب خلق نخبة مثقفة قادرة على نشر أفكار قضائنا وتقدمنا، برجوازية محافظة سترتبط بنا أكثر وتميز الطريق المتبع تحت سيطرتنا...." ولهذا الهدف فإن الكولون والإدارة الفرنسية ساندوا السياسة الفرنسية للتعليم في الجزائر، فهي الدعامة الأيديولوجية للقضاء على الروح الوطنية والدينية وبسط النفوذ الفرنسي.

ثم ظهرت سياسة المحافظة الاستعمارية بمعنى المحافظة على السيطرة الفرنسية، ولهذا أنشئت مدارس من نوع آخر تضمن تعليما ضعيفا وبسيطا للجزائريين، تمنع من تبلور شخصيتهم كي لا تتنور عقولهم فيطالبوا بحقوقهم، وقد كانت هذه المدارس على شكل أكواخ

لتقليص التكاليف، ولم يكن يهمهم سوى جعل الجزائري تابعا لهم في جميع الميادين الاقتصادية، الثقافية، والسياسية. (١٥) ورغم ذلك فان فئة من الفرنسيين تساءلوا على مدى أهمية المدرسة وأبدوا تخوفهم منها ومن أثر تعليم الجزائريين، فقال " فيلمان" أحد المواطنين الفرنسيين: " إن الهدف المنشود ليس تكوين موظفين خاصين ولا تحضير مدرسين للتعليم العمومي، وإنما لتكوين رجال بتأثيرهم على إخوانهم يساعدوننا على تحويل المجتمع العربي وفق متطلبات حضارتنا". ويرى بولار" أن نوايا الاحتلال من إقامة المدارس للجزائريين هو لخدمة مصالحه فقط، أي تحقيق الاحتلال الاقتصادي والفكري. أما وجهة نظر "ديفاجس:" إن هدف فرنسا هو تحقيق الإدماج الثقافي هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية غرس الوطنية الفرنسية للأطفال الجزائريين وترسيخها في عقولهم، فالمدرسة تعمل على إقناع الجزائريين بعظمة فرنسا وأن الانتماء إليها شرف عظيم وقال " رامبو" أحد الجمهوريين البارزين " علم لتحتل، احتل بالتعليم"، و عن "كومب" أوضح في تقرير له على أنه: " يجب تغيير شروط الحياة الثقافية للأهالي وخلق البلبلة في أفكارهم وهدم أسس معتقداتهم وعاداتهم الوحشية والمتحجرة ..." وهذا إضافة إلى أن المدرسة كانت تهدف إلى فرنسة الجزائريين وترسيخ الوجود الفرنسي في الجزائر. وذلك للقضاء على رفض الأهالي للفرنسيين والتقريب بين الجنسين الفرنسي والجزائري، زيادة على محاولة كسب الرموز الوطنية إلى جانب فرنسا لكسب ثقة الجزائريين، ولأجل إنجاح هذه السياسة فان التعليم كان مقصورا على الذين لديهم استعداد لقبول هيمنة الاحتلال، لكي يسهل غرس فكرة لا وجود للذاتية الجزائرية العربية، وأن الجزائر ليست إلا جزء من فرنسا الأم، كما قامت الحكومة الفرنسية خلال الحرب العالمية الأولى ببعث مجموعة من قدامى خرجي المدرسة الفرنسية للعمل في فرنسا سواء في الموانى أو المصانع (١٦)،وقد كان هذا في عهد بيجو، وذلك لتشبيعهم بالأفكار والعادات الفرنسية والغربية، ليعودوا لاحقا إلى الجزائريين مبهورين بما رأوه هناك، فيصبحون يتمنون أن يكونوا جزء من فرنسا، وبما أنهم جزائريين فإنهم سيؤثرون في الأهالي ويتمكنون من التأثير عليهم لأنهم منهم وقد قال الأوروبيون " يجب أن تكون الدراسات قوية بهدف محاربة الأعداء الذين يتعرضون لنا فيما بعد ويجب أن نركز كل الجهود لجعل هؤلاء السكان مشابهين لنا، متحمسين لحضارتنا، أو على الأقل لجعلهم يرغبون في التقرب إلينا شعورا وفكرا. بهذا فان هدف المدرسة هو مصلحة المحتل فحسب وليس الرقي الاجتماعي، إذ عملت على إقناع الجزائريين على أن مكانهم في الأرياف لا المدن، لزراعة الأرض وليس لاستثمارها، بل لخدمة الأوربيين فحسب، ذلك أن الأراضي تخص المحتلين فقط. وفعلا نجد أن المتخرجين من هذه المدرسة رغم أنهم تعلموا إلا أنهم يشتغلون بالحرف اليدوية البسيطة (١٧)،كما يعملون بالفلاحة وفئة قليلة منهم فقط ممن اصطفتهم فرنسا وفقا لمعايير تخدمها بالدرجة الأولى كان لهم الحظ في العمل في بعض الوظائف الإدارية والحكومية الثانوية، ويبقى الهدف الأساسي لها هو عدم تغيير النظام الاستعماري وبقاء السيطرة الفرنسية.(١٨)

٣- محاربة المدارس

استولى الفرنسيون على بعض البنايات المدرسية، بدعوى استغلالها وفق حاجاتهم، وحولوها إلى مكاتب إدارية مدنية أو عسكرية.

وهناك مدارس اضطرت إلى غلق أبوابها بعد مقتل معلميها في المعارك، أو لهجرتهم إلى مناطق آمنة بعيدة، داخل الوطن أو خارجه.

ذلك أن السلطات الفرنسية كانت تَعتبر المعلم الجزائري خطراً يجب محاربته لأنه الحامل والحافظ للمقومات الشخصية للشعب الجزائري.

لهذا عملت على غلق الكثير من المدارس وطرد معلميها، لتحويل المجتمع الجزائري إلى مجتمع أمي، وسنّت قانونا يمنع تنقل الأشخاص من مكان لآخر بدون رخصة، فكان ذلك عقبة في وجه طلبة العلم الذين يتنقلون بهدف اكتساب العلم والمعرفة في الداخل والخارج. "وباسم سياسة الدمج ثم العلمنة حُددت المدارس القرآنية بدقة، وروقبت مدارس الزوايا وأغلقت وأزعجت... وتناقص عدد معلمي القرآن والمدرسين (الآخرين)، ومنذ ذلك الحين تقهقرت معرفة اللغة العربية الأدبية، إذ كانت لا تكاد تدرس..."

كما مُنع فتح المدارس العربية وبخاصة منذ صدور قانون ١٨-١٠-١٨٩٢ الذي يقضي بعدم فتح أية مدرسة إلا برخصة من السلطات الفرنسية، ولكي تُسلم هذه الرخصة تم وضع عدة إجراءات منها:

- الاستعلام عن صاحب الطلب، أي معرفة كل ما يرتبط بحياته وانتماءاته.
- قبول عدد محدود جدا من التلاميذ في هذه المدارس(١٩).

وفي سنة ١٩٠٤ صدر قانون يمنع فتح أية مدرسة لتعليم القرآن إلا برخصة من السلطات، وإذا ما سمح بفتحها تبعا للشروط السابقة الذكر فإنه يمنع عليها تدريس تاريخ الجزائر وجغرافيتها(٢٠).

جاء في أحد التقارير الفرنسية (لجنة القروض الاستثنائية سنة١٨٤٧): "لقد تركنا المدارس تسقط وشتتناها، لقد أُطفأت الأنوار من حولنا، أي أننا حولنا المجتمع المسلم إلى مجتمع أكثر جهلا وبربرية مما كان عليه قبل معرفتنا."

وفي المدن الكبرى منع تعليم اللغة العربية والقرآن الكريم، أما في الجهات التي لم تمس فيها مدارس القرآن البسيطة، فقد منع عليها فتح أبوابها خلال أوقات عمل المدارس الفرنسية، حتى لا تمنع عنها التلاميذ.

وعندما استولت سلطات الاحتلال على الأوقاف حَرمت المساجد والمدارس من موردها الأساسي الذي كان يمونها، فتضاءل مردودها، ثم انعدم في جهات كثيرة، إلا في الحالات التي تدخَّل فيها السكان للتكفل بحاجيات المعلم الذي أصبح يتعاقد مع القبيلة أو الدوار – القرية– فيما يدعى: "مشارط".

٤- نهب الكتب والمخطوطات الجزائرية

في الوقت الذي كان التوسع العسكري على أشده في مختلف جهات الوطن الجزائري، كان الفرنسيون من مدنيين وعسكريين يستولون على ما تحتويه المكتبات العامة والخاصة في المساجد والزوايا والدور. وقد لقيت مكتبة الأمير عبد القادر المصير نفسه بعد سقوط عاصمته المتنقلة "الزمالة" سنة ١٨٤٣. وتلت هذه العملية، عمليات نهب وسطو على مختلف المخطوطات في مختلف المجالات. وكان الكثير من الفرنسيين من صحفيين وعسكريين أو هواة أو غيرهم يتنقلون بين المدن والقرى وفي المؤسسات الثقافية يجمعون هذه الكنوز الثمينة بطريقة أو بأخرى لدراستها أو بيعها لدور الوثائق والمخطوطات في فرنسا نفسها أو غيرها من البلاد الأوروبية.

٥- وضع التعليم العربي الإسلامي

حيث قررنا أن نعالج فيه النقاط التالية :

أ- الكتاتيب والزوايا:

لقد كان التعليم السائد عند دخول الفرنسيين الجزائر هو التعليم العربي الإسلامي التقليدي، وقد استمر ذلك بعد الاحتلال ففي سنة ١٨٧١ كان عدد الزوايا أي المؤسسات الدينية الثقافية في كل القطر الجزائري حوالي ألفين "٢٠٠٠" زاوية يتتلمذ فيها ثمانية وعشرين ألفا "٢٨٠٠٠" تلميذ. والمشرفون على التعليم فيها هم معلمون جزائريون يسمون الطلبة، متخرجون من المدارس الإسلامية الحرة، وحاصلون على ترخيص من الحاكم العسكري في المنطقة العسكرية، أما عن تكاليف هذا النوع من التعليم فكان على حساب القبائل نفسها ومشاركة البلديات. وقد كان الطلاب في الزوايا يهيؤون للدارسة في معهد الزيتونة بتونس أو القرويين بفاس أو بمعاهد أخرى في المشرق العربي كجامع الأزهر(٢١) . وقد كانت برامجها لا تتعدى الدراسات الدينية، ورغم المضايقات الشديدة التي تعرضت هذه الزوايا أو الكتاتيب فقد استمرت في تأدية وظيفتها إذ أبدى الأهالي(٢٢) ميولا كبيرا لها لأنها تعلمهم لغتهم ودينهم، وقد زاد الخناق عليها أكثر وصل إلى إغلاق بعضها أحيانا وأحيانا أخرى تفرض عليها رقابة شديدة حسب ما نص عليه قانون ٣٠ ديسمبر ١٨٨٦و مرسوم ٦ديسمبر١٨٨٧، إذ بموجبهما يراقب الاتجاه والانتماء السياسي للطلبة المشرفين على التعليم، كما عملت فرنسا على عزلها عن المشرق العربي وإعطائها الصفة المحلية ومحاولة فصل الجزائر دينيا عن الخلافة الإسلامية باسطنبول، وذلك بتشجيع المذهب المالكي الذي يتبعه الشمال الإفريقي وإبراز أوجه الاختلاف بينه وبين المذهب الحنفي الذي تتبعه الخلافة، وبهذا يصبح دين الجزائريين إسلام جزائري فيسهل التأثير عليه من رجال الدين الجزائريين المتآمرين معها، حيث استطاعت شراء ضمائر بعض الطلبة، وأنشأت زوايا خائنة تعمل لصالحها لإقناع الشعب أن الاستعمار قدر و مكتوب من عند الله فيجب القبول به ما دام كذلك، وقد كان لهذه الزوايا العملية امتيازات عديدة منها : الإعفاء من دفع الضرائب وتقديم المساعدات لها(٢٣)، وذلك للقضاء على الزوايا المعادية للاستعمار والمحرضة على الثورة ضده، فعوض استعمال الأسلوب العسكري ضد الزوايا الوفية لمبادئها وجدت فرنسا

خطة جهنمية هي تجنيد زوايا ضعيفة إلى جانبها ومواجهتها بالأولى. وقد وقعت عدة زوايا طرقية ضحية الإغراءات المادية، وأصبحت في خدمة الاستعمار. وقد ذكر الحاكم العام في ٢٨ أكتوبر ١٨٩٦ في رسالة له أهمية إنشاء زاوية بدوار عين سلطان البلدية المختلطة لمدينة سعيدة وقد قال فيها: " تمكن طبيعة هذه المؤسسة الحديثة في موازنة تأثير الدرقاوية المعادية لنفوذنا وسيطرتنا والتي أغلقنا زاويتها بنفس الدوار كإجراء تأديبي"،مع العلم أن البلدية الفرنسية من كانت تختار موظفين هذه الزاوية، أما إمامها فقد كان من بين رجال الطرق العملاء لها، وبهذا استطاعت السلطات الفرنسية أن تضع حدا لتأثير زاوية الدرقاوية على السكان الجزائريين، وقد كان هذا جزاء كل زاوية تقف في وجه المحتل، رغم أن فرنسا كانت تتظاهر بتشجيع ممارسة الواجبات الدينية. وضرب الجزائريين رقما قياسيا في التحمل فكثيرا من الزوايا بقيت تحارب الاستعمار، وفشل هذا الأخير في احتوائها لقوة رؤسائها وثرائهم وكثيرا ما قامت الطرق نفسها بإعلان الثورة ضد الاستعمار مثلا : "الأمير عبد القادر" قائد الثورة الشعبية ضد الاحتلال وهو زعيم الطريقة الدينية القادرية،وثورة المقراني ١٨٧١(٢٤) تبنتها الطريقة الرحمانية بزعامة الشيخ الحداد. وقد كنا نلمس التعسف الفرنسي ناحية المدارس القرآنية إذ كان يجوز للحاكم أو الوالي أو حاكم المنطقة العسكرية غلقها في أي وقت يشاء، فموافقة الوالي بالمنطقة المدنية أو الحاكم العسكري بالمنطقة العسكرية كانت جد ضرورية كي يسمح للزوايا بممارسة نشاطها. وقد كان القانون يشترط رخصة تنقل وتجول في البلاد على المدرسين الجزائريين، ويتم فتح المدرسة بعد تحديد الموقع المخصص لها وتقديمه للسلطات الفرنسية للموافقة عليه. فإذا حصلوا على الموافقة كان ينبغي لصاحبها تنفيذ الشروط التالية:

- الخضوع لجميع التعليمات المقررة في مرسوم عام ١٨٩٢.
- أن لا يتجاوز عدد التلاميذ الثمانية "٨".
- لا يجوز للتلاميذ الذين هم في سن الدراسة الالتحاق بهذه المدارس إلا عند انتهاء الساعات الرسمية للدراسة في المدرسة الحكومية.

وما زاد الطين بلة أن الحاكم العام أعلن أن المشرفين على الزوايا يجب أن يكونوا مواطنين أو رعايا فرنسيين، وذلك حسب المادة ٥١ والمادة ٥٢ من مرسوم ١٨أكتوبر١٨٩٢ بمعنى لا يجوز الاستعانة بمعلمين توانسة أو المغاربة أو ليبيين علما أن الجزائريين كانوا في أمس الحاجة إليهم نظرا لعلمهم الواسع في أمور الدين. ولأن الجزائريين لم يعد بإمكانهم الاحتمال رفعوا عدة شكاوي إلى السلطات المعنية، وفي شكاية قدمها سكان مدينة قسنطينة إلى حاكم المقاطعة في ٢٨ جانفي١٨٩٧، ذكروا فيها أن نصف اليوم المسموح به لأطفالهم للذهاب إلى المدارس القرآنية غير كاف بشكل مفيد،وطالبوا بفتح هذه المدارس لتعلم العلوم الدينية والقرآن الكريم طوال اليوم.

وبين هاذين النارين ظهر تيار ثالث يرى أنه يجب إلغاء الزوايا تماما حتى لو كانت في خدمة الاستعمار، نجد منهم "كازانوفا" رئيس بلدية قسنطينة الذي قال: "استنادا إلى وجودي وخبرتي الطويلة في الجزائر خاصة في قسنطينة، ودراستي لعقلية العرب وعاداتهم يكمن واجبي في الإعلان أن الزاوية تعد العدو اللدود في وجه إدماج الجزائريين، لهذا يجب إلغاء الموجودة منها".

ورغم كل الصعوبات والمشاكل فان هذه الزوايا أدت رسالتها على أكمل وجه (٢٥)وكانت السفينة التي أوصلت الجزائريين إلى بر الأمان، إذ استطاعت أن تجعل الجزائريين يدا واحدة إضافة إلى المحافظة على شخصيتهم الوطنية، بتعليم اللغة العربية والدين الإسلامي، وبهذا تكون أفسدت خطة فرنسا المتمثلة في إدماج الجزائريين وتجهيلهم وإعاشتهم في حرمان ثقافي (٢٦) لذلك تم التركيز على المعلمين في هذه المدارس، فجاء مرسوم ١٦أفريل١٨٥٢ وبين طريقة اصطفاء المدرسين وطريقة دفع الأجور، فكانت أجورهم من خمسة وعشرين "٢٥" إلى مائة وخمسة وعشرين "١٢٥" فرنك سنويا، أما أجرة المعلمين الفرنسيين فكانت تتراوح بين ثمانمائة "٨٠٠" إلى ألف ومائتي "١٢٠٠ فرنك سنويا، حسب درجاتهم وكفاءتهم، وأحيانا كانت أجرة المدرسين الجزائريين على حسب قدرة أولياء التلاميذ تقدم على شكل هدايا عينية أو نقدية. وقد كانت المراقبة تعود إلى جهاز مراقبة تابع لرئيس المكتب العربي، الذي كان يتجسس على المدرسين غير الجزائريين خاصة وغالبا ما يطردون، ولكي يتم ذلك لا تعطى لهم رخصة التعليم وترفع عنهم الزيارة .وقد كان الطالب – المدرس- الذي يدرس هو نفسه الذي يتولى أمور الدين كالصلاة بالجماعة والآذان،

ويتلقى أجرة عبادة من السكان، وقد كان هذا الأخير منتميا إلى أحد الطرق المتصلة بعلماء الدين في المشرق والمغرب،وقد كان مؤثر جدا في السكان(٢٧)، بل وصل الأمر إلى معالجتهم بطرق تقليدية كالرقية مثلا، ويتدخل أيضا في حل المشاكل الأسرية، وهو يعتبر العالم الوحيد في القرية،لأنه يعرف القراءة والكتابة. وبفضل تنقل الطلبة المستمر والدائم استطاعوا المحافظة على اللغة العربية والدين الإسلامي، وكذلك بواسطة اتصالهم بالبلدان المجاورة إما طلبا للعلم أو الحج. و قد استطاعوا تنوير عقول الجزائريين بأمور كثيرة كانوا يجهلونها فأحست فرنسا أنهم أقوى وأشرس أعدائهم، فطلبت سلطات الاحتلال من الضباط العسكريين بإجراء إحصاء للمدرسين والتلاميذ. لكن خوف الفرنسيين من هذه الزوايا جعلها تفكر في إنشاء مدارس تكون المشرفة على التعليم. وبهذا نصل إلى:

ب- المدارس الفرنسية

عرف الفرنسيون أن تعليم لغتهم لأبناء الجزائريين هو السبيل السهل للسيطرة عليهم، لهذا دعا الكثير من عسكرييهم ومدنييهم إلى الاهتمام بتعليم الأهالي اللغة الفرنسية، ومن أشهر هؤلاء نجد الجنرال بيجو الذي كان يرفع شعار: السيف والمحراث والقلم، وكان الدوق دومال هو أيضا من المطالبين بهذا، حيث قال: "إن فتح مدرسة في وسط الأهالي يعد أفضل من فيلق عسكري لتهدئة البلاد."

لهذا قاموا بفتح مدارس لتعليم اللغة الفرنسية بهدف القضاء على ما يسمونه بالتعصب الديني، وغرس الوطنية الفرنسية في الأذهان الناشئة، وتسهيل التآلف مع الأوربيين وكسب الأجيال الصاعدة إلى جانبهم ليخدموا مصالحهم بين مواطنيهم.

لم يكن هدفهم نشر التعليم لترقية المجتمع الجزائري، بل كان التعليم بسيطا أوليا، كي لا ينافسهم هؤلاء أو يُعَرِّضوا وجودهم للخطر، "أي أنه كان في حدودٍ ضيقة للغاية، حتى يبقى الجزائريون أسرى الجهل والأمية، كي يمكن استغلالهم على أوسع نطاق ممكن"

في هذه المدارس يتعلم الطفل اللغة الفرنسية وقواعدها والتاريخ الفرنسي والحضارة الأوروبية فينشأ محبًا لها، ويَعتبر نفسه جـزءً منها ولكن لم يكن يسمح لهؤلاء بإكمال تعليمهم، كما أن الكثير منهم كان يضطر إلى ترك المدرسة بسبب الفقر الذي كانت تعيشه الأسر الجزائرية. وإذا كان التعليم الابتدائي إجباريا على أبناء الأوروبيين فإنه ليس كذلك بالنسبة لأبناء الجزائريين.

ج- الكنائس

هذا واهتمت الكنيسة بالتعليم في الجزائر منذ سنة ١٨٣٨ وفتحت مدارس ابتدائية تحت سلطتها، وفي عقد الستينيات وبخاصة بعد كارثة المجاعة التي أصابت الحرث والنسل، قام الكاردينال "لافيجري" بتأسيس جمعية "الآباء البيض"، التي انتشرت في شمال إفريقيا، تفتح المدارس والمصحات ومراكز التكوين المهني للتوغل بين السكان، في محاولة لتقريبهم من النصرانية إن لم تستطع تنصيرهم كليا، وقد جذبت إليها أعداداً هامة من الأطفال في المدارس، واهتمت بالبنات في مراكز التكوين المهني، وقدمت الدواء للمرضى والمشردين والعجزة، تحت ستار المساعدة والأعمال الخيرية، بينما كان الهدف تنصير الجزائريين "بالتعليم ذي البرنامج التمسيحي الصريح، أو برنامج لهدم العقيدة والأخلاق الإسلامية، وبث التقديس للأمة الفاتحة، ولحضارتها وثقافتها(٢٨)."

د- المدارس الإسلامية الحكومية

أنشئت هذه المدارس لتكوين مدرسين يشرفون مستقبلا على المدارس الإسلامية الحرة لتكون خاضعة لها وتحت يدها، وقد ادعت أنها أسستها لتعليم الأسس الصحيحة للإسلام التي أفسدها رجال الدين وشوهته الطرق الدينية(٢٩). إلا أن هذه المدارس في الأصل كانت تهتم بالعلوم الفرنسية أكثر من العلوم الإسلامية خاصة بعد سنة ١٨٧٦، فحسب مرسوم ٢٦ فيفري ١٨٧٦ ادعت فرنسا أن الجزائريين غير قادرين على الإشراف على التعليم، وأن هذا واجبها هي ناحيتهم، فراحت تصطفي المدرسين الذين يقبلون أن يكونوا خاضعين لها، أما الطلبة فلا يراعى مستواهم العلمي بل موقفهم السياسي. وجعل مرسوم ١٨٦٣ المراقبة والإشراف على هذه المدارس من طرف سلطات الاحتلال، ثم جاء الأمر الإمبراطوري لعام ١٨٦٥ لإعادة تنظيم هذه المدارس، وجعلها ذات طابع فرنسي، وأخيرا مرسوم ١٨٦٥ الذي عكس طابع سياسي فرنسي. وكل مدرسة كانت تسند مهمة الإدارة فيها لمدير التربية أما المراقبة السياسية للسلطات العسكرية(٣٠)، وكانت تتضمن ستة "٦" مدرسين، ثلاثة "٣" منهم فرنسيين،

وثلاثة "٣" مسلمين، ومدة التعليم ثلاث "٣" سنوات لطلاب داخليين و السن القانونية للدراسة هي سبعة عشر سنة فما فوق، والمدير كان فرنسيا وبهذا فالتعليم لا يسمن ولا يغني من جوع، و الساهرون عليه لا يفقهون بالإسلام واللغة العربية شيئًا.

أما عن برامج المدرسة فهي كالآتي:

١. اللغة الفرنسية، التاريخ، الجغرافيا، الحساب، بعض مبادئ القانون الفرنسي، القانون المدني، القانون الجنائي والإداري.
٢. تعليم اللغة والأدب العربي، علم التوحيد و القانون الإسلامي، أما نفقات التعليم فتؤخذ من الضرائب الإضافية التي يدفعها الجزائريون في المنطقتين العسكرية والمدينة (٣١) .وقد حاول المعمرين القضاء على هذه المدارس رغم المستوى الضعيف للطلبة المتخرجين منها، و ذلك لرداءة الأساتذة و البرامج على السواء فهذه الأخيرة لم تكن تختلف عن مقررات المدارس الابتدائية. والقروض المخصصة لها متذبذبة وغير كافية. والطالب المتخرج منها يحصل على شهادة عليا هي" شهادة الدراسات الإسلامية"(٣٢) ،إلا أن هذه المدارس الواقع فشلت لعدم التحاق الطلبة بها (٣٣) . ولوعدنا للحديث عن القروض المخصصة للتعليم الجزائري فنقول أنه كلما زاد عدد الجزائريين وانخفض عدد الأوربيين بالبلديات المختلطة انخفض الاهتمام بالتعليم، وتنال الحد الأدنى من القروض، وهذا دليل على تعمد فرنسا تجهيل الشعب الجزائري،لأن هذا في نظرها يعني تحريضهم ضدها وتعبئة شعورهم القومي وهذا يجعلهم يطلبون الاستقلال والانفصال عن الوطن الأم فرنسا. وقد كانت نسبة النفقات العامة على التعليم في الجزائر سنة ١٨٩٣ ٩،٧٧ ٪، أما في سنة ١٨٩٦ فانخفض إلى ٢،٠٣٧ ٪ ليصل إلى ١،٥٪ سنة ١٩٥٨(٣٤) .

ومن المقومات الأساسية التي حاولت فرنسا محوها زيادة عن الديانة الإسلامية نذكر:

٦- اللغة العربية

إن فرنسا لم تدرج تعليم اللغة العربية في برامج تعليمها وقد كان منعدما تماما، وذلك بهدف القضاء عليها فقد اعتبرت لغة أجنبية لا فائدة منها لأنها ليست لغة حضارة في نظرهم، و لأن المعمرين اعتبروها وسيلة وعي وتحريض للثورة ضد الفرنسيين. إلا أن الجزائريين ظلوا يطالبون بتعليم لغتهم في المدارس الجزائرية المنشأة من طرف السلطات الفرنسية، فصدر مرسوم ١٨٨٣ الذي نص في مادته الثالثة والأربعين "٤٣" على أن التعليم يكون باللغتين الفرنسية والعربية في المدارس الجزائرية ذات المستوى الابتدائي، وذلك لامتصاص غضب الشعب الجزائري، ولكي لا تهجر المدارس التي أنشأها الاحتلال، إلا أن هذه المادة بقيت حبرا على ورق ولم تطبق، وبقي التعليم الابتدائي باللغة الفرنسية فحسب وفي سنة ١٨٩٨ تم تعديل البرامج التعليمية فخصصت ساعتين ونصف الساعة أسبوعيا لتعليم اللغة العربية في التعليم الابتدائي، وفي نفس الوقت الذي اشتدت فيه المطالبة بتعليمها اشتد رفض الأوربيين لها(٣٥)،إلا أنهم أجبروا على قبول تدريسها في المدارس الإسلامية الحكومية، وذلك كي يبقى التعليم تحت إشراف الاحتلال للقضاء على الزوايا والمدارس القرآنية، إلا أن السلطات الفرنسية فشلت في إيجاد مدرسين يحسنون العربية فلجأت إلى توظيف المعلمين الأحرار المشرفين على المدارس القرآنية، و ذلك بأمر من مدير التربية والتعليم " السيد جون مير" سنة ١٨٩١ الذي أوجد هذا الحل للقضاء على مشكلة نقص الإطارات ذات التكوين العربي الرسمي وكذلك لكسب ثقة الجزائريين وتسجيلهم في هذه المدارس (٣٦)، وللسيطرة على المدرسين الأحرار الذين هم خارجين عن سيطرتها، إذ قال أحد أفراد السلطة الفرنسية ما يلي: " بذلك نستطيع تكوين أهالي متعلمين يصبحون مبشرين بالمجان للنفوذ الفرنسي بين بنى جنسهم الذين لا زلوا متوحشين" . وقد سخرت فرنسا كل ما باستطاعتها لمحاربة اللغة العربية، ولم تستطع هذه اللغة الأصيلة أن تصمد أمام مكر وخبث الاستعمار فلم تستطع الحفاظ على كيانها، إلا في بعض المدن وذلك بفضل المدارس القرآنية، والوعظ والإرشاد في المساجد، وأخيرا المدارس الإسلامية الثلاث التي أنشأتها فرنسا. بهدف أن تكون معاهد عليا للدراسات الإسلامية لمنافسة المعاهد الإسلامية الكبرى كالقرويين والزيتونة، وبقيت اللغة العربية تدرس على مستوى الزوايا والكتاتيب. وبهذا فإن فرنسا تكون قد حاولت القضاء على الشخصية الجزائرية، وجندت بعض المستشرقين

لحصر اللغة العربية. كما قامت بتعليم العامية الجزائرية للفرنسيين للتطفل على عادات وتقاليد الشعب الجزائري وأسرار حياته، كذلك تعلم اللهجة يساعد على زيادة عدد الأوروبيين في الجزائر(٣٧)، وزيادة على كل هذه الأعمال الماكرة فإن فرنسا اكتفت بتعليم اللغة العربية الفصحى لفئة قليلة جدا، لتكون همزة وصل بينها وبين الأهالي لأغراض إدارية بحتة. وبهذا فإن فرنسا أفقدت اللغة العربية الفصحى مكانتها كأداة للتخاطب والثقافة والتعليم والإدارة والمعاملات بشتى أنواعها، لتأخذ اللغة الفرنسية مكانها واللهجات المحلية التي شجعها الاستعمار، ليس لخدمة الثقافة الجزائرية إنما لتطبيق سياسة فرق تسد(٣٨) .

وقبل أن نقفل باب جرائم فرنسا الثقافية والتعليمية، فان كل مكائد فرنسا لتجهيل الشعب الجزائري وإعادة تشكيله في قوالب فرنسية قد باءت بالفشل، لأن الإسلام قد حفر عميقا في قلوب كل الجزائريين، وكان يستحيل محوه بالسهولة التي توقعتها فرنسا. أما عن اللغة العربية فقد كان لها درعا قويا يحميها هو الإسلام لأنها المعبر الوحيد عنه، وبخصوص الإدماج فهو لم ينجح لاختلاف الديانة واللغة، إضافة إلى أن فرنسا عجزت عن الإجابة على أهم سؤال هو : كيف نكون شعبا واحدا والأوروبيون هم المواطنين والجزائريون هم مجرد رعايا؟ كيف يكون السيد والخادم في مستوى واحد؟ وأخير كيف يحب الشعب جلاده؟

٧- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحفاظ على اللغة العربية

لقد صدر قرارًا في عام ١٩٣٨، يعتبر اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر لا يجوز تعلمها وتعليمها إلا على هذا الأساس. وهذا ما يفسر لنا تلك الحرب الصليبية التي شنها رجال الاحتلال الفرنسي والمبشرون المسيحيون وهم الطليعة الأولى للاستعمار الأوروبي في الأقطار العربية الإسلامية، على اللغة العربية والدين الإسلامي، والقرآن الكريم، والثقافة العربية الإسلامية، طيلة وجود الاستعمار الفرنسي في الجزائر (١٨٣٠ – ١٩٦٢).

لقد كان الاستعمار والمبشرون يعتقدون جازمين بأن نجاحهم في القضاء على اللغة العربية، سوف يسهل لهم بدون شك القضاء على الإسلام، وبالتالي إيجاد أندلس جديدة في الجزائر، ثم إلحاقها إلحاقا نهائيا بفرنسا، فيما وراء البحر الأبيض المتوسط. إذن فاللغة العربية هي المقوم الرئيسي للشخصية الوطنية العربية في الجزائر، ولذلك كان الصراع محتدمًا على أشده، وعنفوانه بين رجال التعليم العربي الحر من جهة، وبين الإدارة الاستعمارية ورجال التبشير المسيحي من جهة أخرى، طيلة قرن واثنتين وثلاثين سنة (١٨٣٠ – ١٩٦٢).

يصور لنا الشيخ الإبراهيمي هذه الحرب الصليبية التي شنتها فرنسا على الإسلام واللغة العربية في الجزائر بعد الاحتلال فيقول "مشكلة العروبة في الجزائر أساسها وسببها الاستعمار الفرنسي، وهو عدو سافر للعرب، وعروبتهم ولغتهم، ودينهم الإسلام"... ثم يقول: "وبيان ذلك مع الإيجاز، أن الاستعمار الفرنسي صليبي النزعة، فهو – منذ احتل الجزائر – عمل على محو الإسلام لأنه الدين السماوي الذي فيه من القوة ما يستطيع به أن يسود العالم، وعلى محو اللغة العربية لأنها لسان الإسلام، وعلى محو العروبة، لأنها دعامة الإسلام، وقد استعمل جميع الوسائل المؤدية إلى ذلك، ظاهرة وخفية، سريعة ومتأنية، وأوشك أن يبلغ غايته بعد قرن من الزمن متصل الأيام والليالي في أعمال المحو، لولا أن عاجلته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالمقاومة لأعماله، والعمل على تخييب آماله".

لقد كان الشيخان عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي رحمهما الله، ورفاقهما من رجال الحركة الإصلاحية الإسلامية التي تبلورت فيما بعد في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (١٩٣١ – ١٩٥٦م) يؤمنون إيمانا لا تشوبه شائبة باللغة العربية، ووجوب إحيائها، ونشرها بين كافة أبناء الجزائر، بعد أن عمل الاستعمار على محاولة محوها في الجزائر.

وقد ناضل الشيخان الإبراهيمي وابن باديس ورفاقهما في جمعية العلماء منذ بداية الثلاثينات من هذا القرن من أجل تحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسي تحت الشعار التالي:

الإسلام ديننا – والعربية لغتنا – والجزائر وطننا – ضد الفرنسة والتنصير – والاندماج والتجنيس – التي كانت فرنسا ورجال التبشير المسيحي يحاولون فرضها على الجزائريين طوال عهد الاحتلال الفرنسي للجزائر (١٨٣٠ – ١٩٦٢م). لذلك عمل الشيخ البشير

الإبراهيمي على بعث اللغة العربية في الجزائر، وخصص لها حيزًا كبيرًا في كتابته الغزيرة المادة، البليغة الحجة والأسلوب. كما خصص لها حيزًا كبيرًا من وقته لتعليمها لأبناء الجزائر.

لقد كان الإبراهيمي يؤمن إيمانا مطلقا بأن اللغة العربية هي وعاء الإسلام وحافظة قرآنه وتراثه، وأن المحافظة على اللغة العربية في الجزائر تعني بقاء الإسلام في الجزائر، وبقاء العروبة في الجزائر، وأن محاولة فرنسا القضاء عليها إنما يستهدف عروبة الجزائر وإسلامها في الدرجة الأولى.

من هنا كان الشيخ البشير الإبراهيمي (١٨٨٩م – ١٩٦٥م) ورجال الإصلاح الإسلامي في الجزائر بصفة عامة من أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (١٩٣١م – ١٩٦٥م) يوصلون ليلهم بنهارهم في العمل على نشر اللغة العربية بين أبناء وبنات الجزائر قبل تأسيس جمعية العلماء وبعد تأسيسها أيضًا، ودعوة فرنسا إلى جعلها لغة رسمية في التعليم، والإدارة في الجزائر.

٨- الحركة الإصلاحية ومدرسة التجديد الإسلامي

تتفق الحركة الإصلاحية في الجزائر التي على رأسها الشيوخ ابن باديس، والإبراهيمي، والميلي، والعربي التبسي وغيرهم مع اتجاه العام لحركة التجديد الإسلامي في النفوس عن طريق تطهيره من البدع، والضلالات، والخرفات مما يترتب عليه الارتقاء بعقول المسلمين، ومستوى تفكيرهم العام، وهذا هو طريق النهضة الذي يقود إلى الحضارة. يقول الشيخ جمال الدين الأفغاني في بيان الأمور التي تتحقق بها سعادة الأمم، وهي في رأيه محصورة في أربعة هي:

١- صفاء العقل من كدر الخرافات، وصدأ الأوهام... فإن عقيدة وهمية لو تدنّس بها العقل، لقامت حجابا كثيفا يحول بينه وبين حقيقة الواقع، ويمنعه من كشف نفس الأمر، ولذلك كان أول ركن بني عليه الإسلام هو صقل العقول بصقال التوحيد، وتطهيرها من لوث الأوهام.

٢- أن تكون نفوس الأمم، مستقبلة وجهة الشرق طامحة إلى بلوغ الغاية منه، بأن يجد كل واحد من نفسه أنه لائق بأية مرتبة من مراتب الكمال الإنساني، فالناس إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة.

٣- أن تكون عقائد الأمة، وهي أول رقم ينقش في ألواح نفوسها مبنية على البراهين القوة، والأدلة الصحيحة خالية من التقليد والانحراف.

٤- أن يكون في كل أمة طائفة يختص عملها بتعليم سائر الأمة، لا ينون في تنوير عقولهم بالمعارف الحقة، وتجليتها بالعلوم الصافية، ولا يألون جهدًا في تبين طرق السعادة لهم والسلوك بهم في جوادها.

أما الإمام محمد عبده فيلخص طريقته في التجديد الديني والفكري للمسلمين في الأمور الثلاثة التالية:

١- تحرير فكر المسلمين من قيود التقليد المميتة حتى لا يخضع العقل لسطان آخر غير سلطان البرهان، ولا يتحكم فيه زعماء الدين والدنيا على السواء.

٢- اعتبار الدين صديقًا للعلم، ولا موضع لتصادمهما إذ لكل منهما وظيفة يؤديها، وهما حاجتان من مستلزمات البشر لا تغني إحداهما عن الأخرى.

٣- فهم الدين على طريقة السلف الصالح قبل ظهور الخلاف بين المسلمين أو المذاهب الإسلامية، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، وهي القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

إن هذا الخط الذي سارت فيه الحركة الإصلاحية السلفية إنما كانت ظروف الجزائر الخاصة تحتمه، فهذه الظروف كانت تختلف عن ظروف كثير من البلدان العربية والإسلامية التي وقعت تحت قبضة الاستعمار الأوروبي في العصر الحديث. فليس هناك بلد عربي أو إسلامي ألحق إلحاقا كليا بدولة الاستعمار مثل الجزائر، وليس هناك بلد عربي أو إسلامي أنكر عليه المحتل الغاصب جنسه ولغته وقوميته مثل الجزائر، لذلك فإن اتجاه الحركة الإصلاحية في الجزائر إلى التركيز على إحياء اللغة العربية، وبعث الدين الإسلامي بعثًا جديدًا في صورة حية مشرقة كان اتجاها عمليًا وحيويًا في قضية التحرير الوطني العام لأنها كانت الرد الطبيعي على السياسة الاستعمارية الصليبية التي سلكتها فرنسا في الجزائر، ومن هنا يمكن القول إن الحركة الإصلاحية في الجزائر لم تكن الدوافع التي خلقتها هي التأثير الخارجي وحده، بل لعبت ظروف الجزائر الخاصة دورًا هامًا في إيجادها وتوجيهها في الاتجاه الذي سارت فيه، نحو التجديد الإسلامي، والبعث الثقافي العام المرتكز على اللغة العربية، مما أدى إلى إحياء الوطنية الجزائرية وتأجها في نفوس

الجزائريين والنشاط الوطني العام في البلاد وفي النهاية إلى قيام ثورة التحرير المجيدة في عام ١٩٥٤م، بعد أن نضجت كل الظروف داخليًا وعالميًا، على أساس حضارة الجزائر العربية الإسلامية وهذا كذلك ما يفسر لنا التركيز الكبير الذي يبدو في كتابات الشيخ ابن باديس بصفة عامة، وكتابات الشيخ الإبراهيمي بصفة خاصة على اللغة العربية والإشادة بها، وبيان أصالتها في الجزائر (٣٩).

خاتمة

في الأخير نقول ما قال الشيخ الإبراهيمي: "اللغة العربية في الجزائر ليست غريبة ولا دخيلة، بل هي في دارها وبين حماتها، وأنصارها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي، مشتدة الأواخي مع الحاضر، طويلة الأفنان في المستقبل، ممتدة مع الماضي لأنها دخلت هذا الوطن مع الإسلام، على ألسنة الفاتحين، ترحل برحالهم، وتقيم بإقامتهم، فلما أقام الإسلام بهذا الشمال الإفريقي إقامة الأبد وضرب بجذوره فيه أقامت معه العربية، لا تتحرك ولا تبرح، ما دام الإسلام مقيما لا يتزحزح. ومن ذلك الحين بدأت تتغلغل في النفوس، وتنساغ في الألسنة والحياة، وتناسقها بين الشفاه والأفواه، يزيدها طيبًا، وعذوبة أن القرآن بها يتلى، وأن الصلوات بها تبدأ وتختم، ونختم نحن بأبيات من قصيدة العلامة عبد الحميد ابن باديس:

شَعْبُ الجزائرِ مُسْلِمٌ وَإلىَ العُروبةِ يَنتَسِبْ.

مَنْ قَالَ حَادَ عَنْ أصْلِه أوْ قَالَ مَاتَ فَقَدْ كَذبْ.

أَوْ رَامَ إدمَـاجًـا لَـهُ رَامَ المُحَال من الطَّلَبْ.

الهوامش:

(١) العيشاوي عبد العزيز، محاضرات في المسؤولية الدولية، كلية الحقوق، جامعة سعد دحلب، البليدة، الجزائر،السنة الجامعية٢٠٠٢-٢٠٠٣، ص ٣٨.

(٢) جابي شاوتش من مظاهر الروح الصليبية للاستعمار الفرنسي في الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، بدون سنة، ص ٥.

(٣) جابي شاوتش، نفس المرجع، ص ٦.

(٤) خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر١٨٣٠-١٨٧١، منشورات دحلب، الجزائر، بدون سنة، ص١٩.

(٥) جابي شاوتش، المرجع السابق، ص ١٦.

(٦) جابي شاوتش، نفس المرجع، ص ١٨.

(٧) جابي شاوتش، نفس المرجع، ص ٢٦.

(٨) جابي شاوتش، نفس المرجع، ص٣٧

(٩) محمد الطاهر وعلي، التعليم التبشيري في الجزائر من ١٨٣٠إلى ١٩٠٤، دراسة تاريخية تحليلية منشورات دحلب، الجزائر، بدون سنة، ص ٥٠.

(١٠) محمد الطاهر وعلي، نفس المرجع، ص ٧٧.

(١١) محمد الطاهر وعلي، نفس المرجع، ص ٢٢٠.

(١٢) عبد القادر حلوش، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر دار الأمة، الجزائر، بدون سنة، ص ٢٥٤.

(١٣) عبد القادر حلوش، نفس المرجع، ص ٢٥٥.

(١٤) عبد القادر حلوش، نفس المرجع، ص ٢٥٦.

(١٥) عبد القادر حلوش، نفس المرجع، ص ٢٥٧.

(١٦) عبد القادر حلوش، نفس المرجع، ص، ٢٥٨.

(١٧) عبد القادر حلوش، نفس المرجع، ص، ٢٥٩.

(١٨) عبد القادر حلوش، نفس المرجع، ص، ٢٦٠.

(١٩) شارل روبير أجيرون، تاريخ الجزائر المعاصرة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٢، ص:١٠٦ و١٠٧.

(٢٠) تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٧٠ص: ١٥١.

(٢١) عبد القادر حلوش، المرجع السابق، ص ١٣٤.

(٢٢) عبد القادر حلوش، نفس المرجع، ص ١٩٠.

(٢٣) عبد القادر حلوش، نفس المرجع، ص ١٩١.

(٢٤) عبد القادر حلوش، نفس المرجع، ص ١٩٢.

(٢٥) عبد القادر حلوش، نفس المرجع، ص ١٩٥.

(٢٦) عبد القادر حلوش، نفس المرجع، ص ١٣٥.

(٢٧) عبد القادر حلوش، نفس المرجع، ص ١٣٦.

(٢٨) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الثالث، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٨، ص: ٣٧٥.

(٢٩) عبد القادر حلوش، المرجع السابق، ص ١٣٧.

(٣٠) عبد القادر حلوش، نفس المرجع، ص ١٣٨.

(٣١) عبد القادر حلوش، نفس المرجع، ص ١٣٥.

(٣٢) عبد القادر حلوش، نفس المرجع، ص ١٤٠.

(٣٣) عبد القادر حلوش، نفس المرجع، ص ١٩٥.

(٣٤) عبد القادر حلوش، نفس المرجع، ص ٢١٤-٢١٥.

(٣٥) عبد القادر حلوش، نفس المرجع، ص ٢٠٢.

(٣٦) عبد القادر حلوش، نفس المرجع، ص ٢٠٣.

(٣٧) عبد القادر حلوش، نفس المرجع، ص ٢٠٤.

(٣٨) عبد القادر حلوش، نفس المرجع، ص ٢٠٥.

(٣٩) صالح مختاري، جهاد الشيخ البشير الإبراهيمي عن اللغة العربية والإسلام في الجزائر، الاستعمار حاول تشويه الهوية الجزائرية واللغة العربية، من كتاب أسرار الاستيطان الأوروبي الفرنسي على الجزائر المحروسة، منشور على الانترنت، تاريخ المراجعة ١٨ جانفي ٢٠١٦، الموقع الالكتروني:

http://mokhtari.over-blog.org/article٢٣٧٣٧٢٥٣-.html